الخطاب العربي بشأن اللغة العربية وضرورة التطور والتغيير

دكتور/ هاجد بن دميثان الحربي
أستاذ الأدب والنقد الحديث المشارك
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب،
جامعة الملك سعود– الرياض

الكلمات المفتاحية: الخطاب العربي، اللغة العربية، التطور اللغوي، التراث، الخصوصية.

ملخص البحث: يحاول هذا البحث تشخيص ملامح الخطاب العربي بشأن اللغة العربية ، ذلك الخطاب الذي يحضر دائما بصورة الأنا المضخمة من خلال شعارات ولافتات إعلانية تؤسسها قداسة اللغة وأنها هوية الأمة ومذكرة تراث العرب ووعاء أحكام الدين، ويبلغ هذا الخطاب قمته في الهيئة والحضور حين يدّعي أن اللغة تمتلك تحصينا إلهيا؛ فالله قد تكفل بحفظها وحمايتها، والواقع أن هذا الخطاب بصورته السابقة قد افتقد فاعليته وتأثيره بسبب كثرة تكراره واستنساخه الدائم من جهة؛ وبسبب الفهم القاصر لموضوع الحماية والحصانة الإلهية من جهة أخرى .

وعلى ضوء هذا الوقوف على سمات وملامح ذلك الخطاب، وتأثيره وفاعليته؛ فإن محاولة التجريب والبحث عن خطاب مغاير تبدو حاجة ملحة وطلبا ماثلا للوقوف على تشخيص واقع اللغة العربية والتحديات التي تواجهها، فيضع البحث بعض المقترحات والأساليب الممكنة لتبني خطاب تجديدي يعتمد على آليات وسمات جديدة بغية الإسهام في النهوض باللغة العربية وتكريس دورها الواقعي كلغة عالمية جديرة بالاحترام والاهتمام .

Arab Discourse on the Arabic Language and the Necessity of Development

Abstract :

This research is to examine the Arab discourse features on the Arabic language. The language that always presents in the image of the ego amplified through slogans and advertising signboard which is established by the language holiness and by the fact that it is the identity of the nation and the memorandum of the heritage of the Arabs and the religion provisions container. The Arab discourse reaches the peak when it is said that the Arabic language has divine immunity in which God has guaranteed to preserve it and protect it. On one hand, this discourse, in its traditional form, has lost its effectiveness and impact because of repetition and cloning, and because of the limited understanding of the divine immunity on the other.

In light of the features of this discourse, it seems that there is a necessity to find a different discourse to diagnose the reality of Arabic language and the challenges it faces. This research proposes some potential suggestions and approaches to adopt an innovative discourse that depends on new features to contribute to Arabic language advancement to enshrine its role as a respectful global language.

التمهيد :ملامح وسمات الخطاب العربي بشأن اللغة العربية

تعد اللغة مكونا رئيسا في رصيد الأمة الحضاري والإنساني، والسمة البارزة في صوغ هويتها وثقافتها، وكل أمة ذات هوية راسخة لن يؤثر فيها التفكيك الذي يمارسه التطور الحضاري؛ مادامت تمتلك فكراً إنسانيا راقياً، وانفتاحاً عالميا على حقوق الإنسان والعدل والمساواة، على حين أن كل هوية تتأسس على مبدأ الخصوصية والعزل تكون عرضة للتفكك والتحلل المعرفي، وعلى ضوء هذا التصور أتت فكرة هذا البحث ليطرح عنوانها تساؤلا مباشرا، ما الخطاب العربي بخصوص اللغة وما مدى الإيجابيات والسلبيات فيه؟ فالخطاب العربي بخصوص اللغة تؤسسه شعارات ولافتات إعلانية واضحة وصريحة، فهي لغة القرآن الكريم، وهوية الأمة، ووعاء أحكام الدين ومذكرة تراث العرب، واللغة الخالدة ...إلخ .

ويكرّس ذلك الخطابُ منحها صفة التميّز المغاير والخصوصية المنفردة عن اللغات الأخرى ((لأنها التي شاء الله -عز وجل- أن تكون لغة القرآن الكريم، وهي اللغة التي يتعبد بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها منذ أربعة عشر قرناً، وقد توالت عليها القرون دون أن يصيبها ما أصاب لغات الأمم الأخرى من موت مجهز أو انقسام مشتّت، وكان ذلك كله ،بما أخذ الله تعالى من عهد على نفسه، إذ يقول في محكم تنزيله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فهي محفوظة مصانة)) (أبوصالح،٢٠٠١م:٤١)، وقد كان من لوازم هذا الخطاب عندما يمنح اللغة العربية امتيازها السابق ترديد الآية الكريمة السابقة واستحضارها بقصد الركون إلى عدم الاكتراث بالأخطار التي تهدد اللغة أو تقلل من شأنها، وكأنها بذلك تملك تحصينا إلهيا خاصا، ولذا فقد كان رأي أحد الباحثين – كمثال للمدونات النصية في هذا المجال- حينما تأمل في جهود العلماء ومؤلفاتهم اللغوية التي كان لها الدور الكبير في حفظ اللغة ووضع قواعدها أنهم ((كانوا يعملون بهداية من الله ورعاية وتوفيق، لأنهم كانوا الأدوات والوسائل إلى تحقيق وعده الصادق النافذ، الذي لا يعوق نفاذه شيء .. هذا أمر لا صلة له بمناهج البحث ومنطق الفكر، لأنه ينزل من المسلم منزلة العقيدة المسلمة، التي لا تحتاج إلى برهان، ولا ينازعه فيها شك، مهما كان رأي غير المسلمين فيه ومهما خطر على باله من وساوس))(محمدحسين،١٩٨١م:١٩٦)،وإلغاء العقل وتعطيل الفكر وتقويض المنهجية البحثية ليست الإشكالية المهمة في هذا الطرح، ولكن

الأهم هو إقحام الذات الإلهية في هذه الافتراضات القطعية، والتألي على الله في معرفة حكمته وإرادته، ولعل النظر إلى ما أثبتته كتب المفسرين بشأن هذه الآية يوضح المبالغة الخطيرة التي يتبناها ذلك الخطاب في تفسير هذه الآية حينما يقصرها على اللغة العربية مع أن الآية ظاهرة المعنى في أن المراد حفظ القرآن الكريم ككتاب ديني مقدّس، ولا علاقة لذلك بحفظ اللغة وادعاء قداستها، وقد نسي أصحاب ذلك الخطاب أن أكثر المسلمين لا يتكلمون اللغة العربية ولكنهم يتكلمون بلغات أخرى، ومع ذلك فقد بقي القرآن كتابهم المقدس الذي يقرأونه ويتعبدون الله به ويقيمون حدوده، دون أن تكون لغاتهم عائقا لهم، ويصل هذا الخطاب إلى ذروته وقمة الذاتية فيه حينما توجد فتاوى تحريم اللغة الأجنبية، واعتبار فعل ذلك الشيء مروقا من الدين وارتماء في أحضان الآخر، فكأن القيام به بداية الانسلاخ من الدين والقيم الإسلامية، و((تعتمد مثل هذه الفتاوى على بعض الأحاديث الضعيفة التي نصّت على أن التكلم باللغة الأعجمية يورث النفاق، إضافة إلى ما ذكره بن تيمية في كتابة اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب حيث قال(فإن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله ولايصح لمسلم التكلم بغيره)، **وفيما يخص تعلم اللغة الإنجليزية تبين فتوى تحريمها "أن اعتياد التكلم بغير العربية حين يكون عادة أمر غير مشروع، لأنه يورث محبة أهل تلك اللغة من الكفرة وهو مخالف لعقيدة الولاء والبراء من الكفار.. وبالتالي فإن الذي يعلم صبيته اللغة الإنجليزية منذ الصغر سوف يحاسب عليه يوم القيامة، لأنه يؤدي إلى محبة الطفل لهذه اللغة ثم محبة من ينطق بها من الناس"**))(صحيفة الوقت البحرينية،٢٠١٠م:١١)، ويندفع أصحاب هذه الفتاوى ومن يتبناها بحماس شديد يجعلهم يفتحون جبهة مباشرة للمواجهة مع طرف آخر؛ قد يحمل انتماء إلى المنظومة ذاتها ولكنه يؤمن بضرورة تعلم لغة الآخر وأهمية الترجمة مدركاً الأضرار الجسمية لمبدأ العزل والاختزال، وهنا قد تدفع هذه المواجهة كلاً من الطرفين إلى التعصب الأعمى لرأيه فتعلو لهجة الاتهام والتدخل في النوايا فينتج بالتالي انشراخ في الخطاب العربي وتعمّق في جدليات وافتراضات لاطائل من ورائها .

وقد تعمّق طرح هذا الخطاب بصورته السابقة القائمة على قداسة اللغة وخلودها في نفوس الكثير من أبناء المجتمعات العربية، ومن المؤسف له أن تجد الكتب المدرسية المنهجية في بعض المجتمعات العربية تعنون ب(لغتي الخالدة) ليكون ذلك

الكتاب المدرسي بين أيدي الأطفال والناشئة في مدارس التعليم العام بعنوانه السابق، ولكن النتيجة الواقعية لهذا الخطاب بملامحه السابقة أن الكثيرين قد تفهّموا منه قداسة اللغة العربية وخلودها، وعدم حاجتها إلى الجهد البشري في صيانتها والمحافظة عليها، فحدث التقاعس عن حماية العربية وغاب الانفعال بشعور الانتماء إليها لأنها تحوّلت إلى نصّ ديني مقدس وافتقدت بهذا التحول سمتها الأساسية كلغة نامية متطورة فاصطبغت بالجمود والتصلّب الذي من شأنه أن يؤدي إلى انكسار اللغة بل قد يودي بها ويقودها إلى هاوية الانقراض.

يضاف إلى ماسبق أن التكرار المملول والترديد المتراسل لهذا الخطاب بشعاراته السابقة وهواجس الأنا المتضخمة فيه قد قلّل من فاعليته وأفقده القدرة على التأثير، والدليل على ذلك الواقع المتردي للغة العربية وقلة أهميتها في نفوس أبنائها.

ولذا فلم يعد من المجدي التحدث في نمط هذا الخطاب ولا التحرّك في إطاره، بل إن واقع الحياة المعاصرة يحتّم التجريب والبحث عن خطاب مغاير في تشخيص مشكلة اللغة العربية وإعادة النظر في تراث الثقافة العربية في هذا المجال، حيث كان هذا الخطاب يتعامل معه بشيء من القداسة والتسليم المطلق دون عرضه على متغيرات الحياة وظروفها الطارئة .

ومن أهم ما يتصف به الخطاب سمته الإيديولوجية القومية التي تأتي مقابلاً لسمة الموضوعية والإنسانية، ومشكلة الثقافة العربية أنها تبني خطاباً محلياً ولا تبني خطاباً عالمياً تؤصل فيه ظروف المجتمع وحاجات الإنسان، الذي يقوم لدى الكثيرين على التخلص من الهوية والارتماء في أحضان الآخر الذي يقصد به دائماً الغرب وحضارته، ((وهذا الانطباع التلقائي إنما يعبر عن أزمة الثقافة العربية بشكل عام والخطاب العربي بشكل خاص، من حيث عدم قدرة هذا الخطاب على كسر حاجز الذاتية المفرطة ودائرة (الأنا) المفرطة في قوانينها الخاصة والوصول إلى العالمية بالتالي))(الحمد،٢٠٠٣م:١٧٧)، وتغير المجتمع العربي وتطور الثقافة المعاصرة قد أحدث تغيراَ وتطوراً في عقلية الإنسان المعاصر فلم تعد الأنا المنغلقة حلاً مقنعاً، والخطاب الذي يتأسس عليها لن يجد قبولاً ولن يمتلك تأثيراً، وقد أدركت جميع المجتمعات المتقدمة الضرورة الملحة في تبنيها خطاباَ عالمياً منفتحاً يجتمع فيه الهم الإنساني ويراعي عوامل النهضة والتنمية التي تسعى إلى الرقي بالمجتمع سياسياً

وفكريا واقتصادياً، فالعامل الرئيس في تحوّل خطاب المجتمع العولمة باعتبارها المشروع المثالي الذي انتهى إليه تطور الحضارة الإنسانية، أما الثقافة العربية السائدة فإنها تفارق الواقع الذي تعيشه والعصر الذي تنتمي إليه ، فالعالم العربي لا يزال خاضعاً للأنماط الثقافية التي عاش عليها المجتمع العربي القديم كما لا يزال متأثراً بها في إنتاجه المعرفي والثقافي .

المحور الأول: خصوصية اللغة بقدسيتها وحفظها.

في إطار تكريس خصوصية الاصطفاء والقداسة ثم الحفظ والخلود لهذه اللغة يقوم أصحاب هذا الخطاب بإجراء مقارنات تعسفية تغيب فيها العقلانية المتزنة وتتضخم المبالغة المفرطة؛ فيطرحون تساؤلات متراكمة يختزلون إجاباتها نحو مبدأ تلك الخصوصية والتميز الذي أسسوه سلفاً لهذه اللغة، وفي سياق تلك المقارنات تسترسل معالجة القضية وفق المفهوم المسلّم به سلفاً، فنجد في أطروحاتهم أنه ((ربما يتبادر للذهن مباشرة أن العربية لم تمت لأنها لغة دين.وهذا صحيح، ولكن يبقى السؤال ملحًا، لماذا ماتت الآرامية وهي لغة المسيح عليه السلام، وهي أيضًا لغة دين؛ إذ هي لغة الإنجيل وبها نزل ؟ بل ولماذا تراجعت العبرية وهي لغة التلمود والتوراة :كتاب الملّة اليهودية؟ واليهود أكثر خلق الله دهاء وأعظمهم مكرا، وأشدهم كيدا وتدبيرا، وأكثر الناس حرصا على تراثهم وثقافتهم.كيف ماتت هذه اللغات واندثرت، ولم تمت العربية، ولم تتبدّل ولم تتحول ؟ إن في الأمر لسرًا)) (عمر،١٤٣٧: ٢١).

ثم بعد تشكيل هذه التساؤلات القائمة على المقارنة يصل كاتب هذا التحليل إلى الاستنتاج بقوله: ((عسى أن يقود ذلك إلى إدراك مكانة اللغة العربية ومنزلتها المتفردة بين لغات العالمين. وعسى أن يستدل بذلك على حقيقة أن العربية، دون غيرها من اللغات، لغة سهلة مرنة معدة ومجهّزة ومصمّمة لتبقى على مر العصور، مقاومة لكل عوامل الفناء والبلى والانقراض ؛ بل ولكل مظاهر التبدل والانحراف أو التحريف)) (عمر،١٤٣٧: ٢١)، ثم يسترسل الكاتب في أسلوبه العاطفي قائلًا ((فالمعلوم عن تطوّر اللغات البشرية، أنها تبقى بقدر ما يتعاظم رصيدها من الآثار الأدبية والعلمية التي يبتدعها النابهون من بنيها، ولكن حتى ذلك لا يحول دون تغيير أصواتها ومفرداتها وتراكيبها حتى تصبح في مرحلة لاحقة من تاريخها خلقًا آخر. وتبقى اللغة العربية مثالاً متفردًا على خرق هذا الناموس وتخلّف هذه القاعدة؛ حيث بدأت مع انبثاق فجر الرسالة المحمدية مرحلة جديدة في حياة اللغة العربية الفصحى؛ فهي كأنما تعاطت مع تعاليم هذه الرسالة الخالدة إكسير الحياة وسر البقاء)) (عمر،١٤٣٧: ٢١)، ومثل هذه النصوص المحمومة بالذاتية المفرطة لا يمكن أن تكون منسجمة مع رسالة الإسلام التي تؤكد بالنص القرآني(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)، ولكن سنة الله في إبلاغ الرسالات الدينية أن تكون رسالة كل رسول بلسان قومه (وما أرسلنا من رسول

إلا بلسان قومه ليبين لهم)، وقد أشارت كتب المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت بأسلوب حجاجي معنيّ بالرد على المتهوّدين والمتنصرين من العرب الذين كانوا يعتقدون أن الرسالة الإلهية لا تكون إلا بلغة الكتب الدينية السابقة على نحو ما تواطأت عليه معرفتهم بتلك الكتب والديانات التي سبقت الإسلام، فاستقرت بهم أفهامهم وساقهم جدالهم إلى أن القرآن لو كان من عند الله لكان بلغات الكتب الدينية السابقة، فكان هذا الفهم لديهم محط اشتغال حجاجي، فجاء القرآن مفنّدا هذا الزعم ومبيناً أن كل رسول يبعث بلسان قومه؛ ليكون الوجه الآخر في هذه القضية أنه ليس للكتاب الديني لغة خاصة، وأن اللغة فيه وسيلة إبلاغية وتواصلية وليست غاية لذاتها، وما تأكيد القرآن على عربيته ونزوله بهذه اللغة إلا من باب تبديد سلطة اللغة الدينية وتقويضها على نحو ما استقر في نواميس الديانات السابقة، وفي إطار هذا الفهم ووضع النص القرآني في سياقه الصحيح والبحث في أسباب نزول الآيات تبدو قداسة اللغة الدينية التي ضخّمت شأنها ثقافة الخطاب العربي وهماً معرفياً ومغالطة قابلة للمراجعة وإعادة النظر، والنقد الحضاري قد يكون مسؤولًا عن مراجعة مثل تلك الأحكام، وأحكام المفسرين والمؤولين لا ينبغي أن تكون مصدراً للحقيقة العلمية ولكن الحقيقة ينبغي أن تكون في النص الديني ذاته، وحينما يختزل الموقف الثقافي في تلك الأحكام والتأويلات البشرية تتوقف عجلة التحديث والتطوّر وتتعطل مقصدية التدبر الدئم، والتأمل المستمر في النصوص الدينية المقدسة، وقد تبدو في نص قرآني آخر فحوى هذه القضية أكثر وضوحًا، ونعني قوله تعالى (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فدفعًا لانتقاص القرآن واتهامه بالمجيء من كتب الديانات السابقة كان لزاما أن يكون بلسان عربي يختلف عن لغة الكتب الدينية السابقة، وليست هذه المقصدية من التنزيل اللغوي معنية بالحط من اللغة الدينية السابقة أو الرفع من اللغة الدينية الجديدة بقدر ماهي معنية بتقويض سلطة اللغة الدينية وأن الكتب المقدسة ستكون بلغات مختلفة ليكون الناس سواء ولا فضل لعربي على أعجمي ولا أسود على أبيض، مما يعني بالتالي أن سلطة اللغة الدينية قد تكون إساءة بحق القرآن ومقصدية الرسالة علاوة على ما تحمله من نفس عنصري لا يمكن أن تقبله تعاليم دين أتى خاتمًا للأديان وبعث رسوله كافة للناس .

الأمر الآخر الذي يبين هشاشة ذلك الخطاب أنه على حين يتحدث عن قداسة اللغة وحمايتها وخلودها؛ وأنها تعاطت مع رسالة الإسلام إكسير الحياة وسر البقاء ... مع ذلك كله نجده سرعان مايتناسى ذلك الخلود وتلك الحصانة للغة فيمضي في تفصيل ما تعرضت له اللغة من مزاحمة اللغات الأجنبية وتفشي العاميات وتلكؤ لسان أبناء هذه اللغة وعجزهم عن التحدث بلغة سليمة من اللحن والأخطاء الصوتية والدلالية ..إلخ، فالتباكي على حال اللغة وأوضاع المتحدثين بها المزرية يشغل حيزا كبيرا في مدونة ذلك الخطاب؛ دون وعي بحالة التناقض التي تشوب انسجام جزئياته، وتشتت أفكاره في حالة من الفوضى والاضطراب، وكل خطاب تعتريه الفوضى والتناقضات ويغيب فيه المنطق العقلاني المؤسس على واقعية الطرح يفقد قدرته على تشخيص الإشكال ووضع الحلول.

وفي خضم هذه المغالطات والتناقضات الواقعة في راهن اللغة وواقعها الفعلي .. تدفع تلك المبالغة العاطفية أصحابها إلى تجاوز الحاضر بإشكالاته الماثلة إلى استشراف المستقبل والحكم على واقع اللغة فيه انسياقاً مع إيديولوجية هذا الخطاب، فنجد هذه النظرة الاستشرافية مبسوطة في أبحاث ودراسات متعددة؛ كقول أحد الباحثين : ((القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصيلة، وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور، وستموت اللغات المنتشرة اليوم في العالم كما ماتت لغات حية في سالف العصور إلا العربية، فستبقى بمنجاة من الموت، وستبقى سلطة حية قائمة في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسير على سائر لغات البشر، ولا غرو فهي متصلة بالسلطات السماوية والمعجزة القرآنية، وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية. إنها لغة القرآن بكل الاعتبارات والمقاييس والمعاني وظواهر الحياة والتاريخ))(رفيدة،١٩٩٠: ٩٣).

ويبدو أن هذه النظرة الاستشرافية بخلود اللغة وبقائها تتمركز في فرضيتين أساسيتين، تعتمد كل منهما في تشكلها على الأخرى لتتعاضدان معاً في تكوين خطاب واحد، وتأهيل رؤية واحدة يمثلها ذلك الخطاب، ولعل مقولة الباحث السابقة تدور في إطار هذا الأساس الفكري، فالفرضية الأولى أن القرآن قد حفظ هذه اللغة على قيد الحياة في ماضيها وحاضرها، أما الفرضية الثانية فتقوم على أساس أنه سيحفظها في المستقبل، والفرضية الأخيرة منسدلة من الأولى تبعية واقتضاءً، ونلحظ أن تأسيس هذه

الفكرة يتبلور في إطار زمني يستوعب كل مفردات الزمن (الماضي – الحاضر – المستقبل)؛ ليصبح بالتالي تحقيقًا تاريخيًا، ومع أن مناقشة المستقبل لا يمكن أن تكون مقبولة في حدود منطق البحث العلمي وعقلانية الفكر؛ لأنها ستكون محكومة بقضايا التطور الحضاري والمكونات الاجتماعية والثقافية والفلسفية في المستقبل، ولعل واقع الحياة المعاصرة بما فيها من ثورة التقنية والاتصالات وتطور التكنولوجيا والآلة الصناعية قد كشف عن قصور العقل البشري في نظرته المستقبلية ومدى الفجوة الكبيرة بين واقع النظرة الاستشرافية في المعرفة الإنسانية السابقة وواقع الحياة والتطور الحضاري المعاصر، مما يعني بالتالي ضرورة امتثال هذه التجربة الواقعية وعدم المبالغة في الاستشراف العقلي إلا في حدود ضيقة من التداعيات والحيثيات الحتمية في قضايا ومجالات محددة، وبالتالي فإن الخوض في الغيبيات والتنبؤات المستقبلية أمر قد تجاوزه واقع الوعي المعرفي المعاصر.

وقريب من مناقشة المستقبل والحكم عليه الذهاب إلى الماضي البعيد جدا؛ وصياغة تصورات عن النظام اللغوي للعربية في مرحلة ما قبل العصر الجاهلي بقرون ممتدة من الزمن مع غياب المعلومات الكافية والكتابة التاريخية الموثّقة عن تلك المرحلة، وفي هذا يقول محمود شاكر: ((للعربية شجاعة صادقة في تعبيرها، وفي اشتقاقها، وفي تكوين أحرفها، ليس للغة أخرى. وإذا كانت اللغة هي خزانة الفكر الإنساني، فإن خزائن العربية قد ادخرت من نفيس البيان الصحيح عن الفكر الإنساني وعن النفوس الإنسانية، مايعجز سائر اللغات، لأنها صفيت منذ الجاهلية الأولى المعرقة في القدم، من نفوس مختارة بريئة من الخسائس المزرية، ومن العلل الغالبة، حتى إذا جاء إسماعيل نبي الله، بن إبراهيم خليل الرحمن، أخذها وزادها نصاعة وبراعة وكرما، وأسلمها إلى أبنائه من العرب، وهو على الحنيفية السمحة دين أبيهم إبراهيم، فظلت تتحدر على ألسنتهم مختارة مصفاة مبرّأة، حتى أظل زمان نبي لا ينطق عن الهوى،صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله بها كتابه بلسان عربي مبين)) (محمود شاكر،١٣٨٥ه:٣٤٦)، وحينما يقع كاتب كبير كمحمود شاكر في هذه العفوية العاطفية فلا يدل ذلك إلا على وقوع العقل تحت تأثير مكوّن ثقافي عميق، قد يمارس دوره الرمزي في لاوعي الإنسان، ويجعله يصدر تصوراته بأسلوب تخيلي لا يستند إلى أسس علمية أو أدلة واقعية.

بقي أن نعود الآن إلى الفرضية الأولى حيث نجد أنه من الممكن مقايسة صحتها وإخضاعها للفحص والاختبار لأنها تقوم على واقع محسوس، ولاختبار مدى صحتها نجدها تطرح أسئلة مقلقة تتمثل فيما يلي:

- هل حفظ القرآن اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ؟
- وهل حفظها كلغة حية يستخدمها المجتمع في سليقة لغوية ؟
- وأخيرًا إذا كان هذا الحفظ فعالاً ومتواتياً فلماذا العويل والصراخ على اللغة العربية يرتفع في كل عصر من العصور ؟

وتبدو الإجابة عن هذه الأسئلة واضحة في الخطاب اللغوي العربي والقضايا التاريخية فيه، فالدراسات اللغوية تثبت أن السبب الرئيس في تدوين اللغة العربية ووضع قواعدها هو الخوف عليها من الضياع بعد تفشي اللحن وفساد اللسان العربي في مرحلة مبكرة جدًا وقريبة من نزول القرآن الكريم .

وقد اشتهر وتراسل في جل المصادر التاريخية ذكر خبر هذا التدوين برواية تاريخية، مفادها أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من وضع علم النحو بإشارة من علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وتذكر تلك المصادر قصة مهمة في هذا الخبر، وهي أن ابنة أبي الأسود قالت له ذات يوم: ما أحسنُ السماء؟ فأجابها والدها: النجوم، فردت عليه بأنها قصدت التعجب فنبهها إلى أنه يجب عليها أن تقول: (ما أحسنَ السماءَ)، والمهم في هذا الخبر والقصة المتعلقة به ليس استفاضة ذكره واشتهاره في المصادر؛ ولكن الأهم الباعث والسبب الرئيس الذي دفع أبا الأسود الدؤلي إلى وضع النحو، وهو الخوف على اللغة العربية من الضياع وتفشي اللحن بين أبنائها بعد اختلاطهم بالأعاجم والتداخل الحاصل بين العربية واللغات الأخرى التي دخل أبناؤها في الإسلام، وهذه الإشارة التاريخية نجد فيها رداً واضحاً على مزاعم القول بأن الله قد تكفل بحفظ اللغة وصيانتها من النقص أو الضياع، فإذا كان في هذه المرحلة التاريخية قد تفشى اللحن وشاب اللغة الضعف فلا مجال لبحث ذلك في المراحل التاريخية اللاحقة التي سيكون بديهيا الضعف فيها وانتشار اللحن نتيجة لاطرّاد العوامل المسببة لذلك في المراحل اللاحقة، ولا مجال لمتابعة ذلك لأنه قد يكون من اجترار العقل وتكرار البديهيات دون الحاجة إلى ذلك، ولكن المهم هنا هو معرفة أن العقل البشري لا يصل إلى الكمال المعرفي والإحاطة الكافية بمعالجة قضاياه الثقافية والفكرية، وبمعنى آخر فإن العقلية

العربية لم تكن تمتلك وعياً كافياً بقضية التطور اللغوي والتحول الذي يعتري أي نظام لغوي عند الاحتكاك بالثقافات واللغات الأخرى كما هو ديدن وحال جميع اللغات البشرية، واللغة العربية لم تواجه هذا الاحتكاك والتداخل باللغات الأخرى قبل مرحلة تدوينها لأنها كانت شبه معزولة في الجزيرة العربية، ولكن بعد مجيء الإسلام وانتشار الفتوحات واتساع الدولة حدث هذا الاحتكاك المباشر وكان له أثره السريع والقوي في لغة العرب وثقافتهم، ولو استثمر العرب أثر هذا الامتزاج الثقافي في صالح تطور اللغة العربية ونمو نظامها اللغوي وازدهاره لكان الأمر مختلفاً بالنسبة للغة، ولكنهم آثروا الانعزال على الانفتاح وفضلوا البقاء على التحرك، وبقاء الإنسان على حاله يعني التكلّس والجمود، على حين أن تحركه يعني النمو والتطور والازدهار، وبهذا نكتشف أن الفكر والمنهج اللذين تأسس فيهما علم النحو يقومان على مبدأ العزل الذاتي، وكانت نتيجة هذا المبدأ تقييد اللغة وتحجيم تطورها وتحول نظامها الذي هو من خصائصها وملامحها الحيوية، إضافة إلى الاقتصار في اشتغالاتهم على مدونة لغوية مخصوصة، ونتيجة الانطلاق من هذا المبدأ فقد واجه النحويون تحديات كبيرة ظل بعضها عالقاً إلى هذا الوقت المتأخر، والبعض الآخر ظهر بصورة تعسفية فكثرت بينهم الاختلافات وتباينت المدارس النحوية وتناحرت الآراء حتى أصبحت مقولة (أوهى من حجة نحوي) مثلاً سائراً في الثقافة العربية.

وقد يقول قائل بعد هذا كله: إن وضع قواعد اللغة العربية وتدوينه قد فرضته ظروف سياسية وثقافية، وقد يكون لقصديّة فهم القرآن وتدبر أحكامه علاقة بهذا، وفي هذا القول جانب كبير من الصحة ولكن هذه الصحة النسبية لا تعني صياغة النظرية اللغوية في مجال يشوبه الاضطراب ويعتريه الخلل، لأن اللغة وعاء الحضارة كما يقرّر ذلك علماء الأنثربولوجيا، وبتطور الأولى وحيويتها تنمو الأخيرة وتزدهر.

وربما كان الوعي بالنظرية اللغوية – في مستواها المفاهيمي والإجرائي– وما آلت إليه علوم اللسانيات الحديثة قد أحدث شيئاً من الوعي لدى بعض الباحثين العرب في هذا المجال، فبذلوا جهودًا مشكورة في أبحاثهم ودراساتهم بغية النهوض باللغة وتقويم المفاهيم الخاطئة بشأنها، وقد نجد مثالا لذلك دراسات من اتبعوا المنهج الوصفي في اللغة من المعاصرين، مثل: عبدالرحمن أيوب، وتمام حسان، وعبد السلام المسدي وغيرهم .

حيث إن جوانب القصور والهفوات التي شابت التراث النحوي قد أيقظت همم الوصفيين ودفعتهم إلى البحث عن أساليب جديدة وقد وجدوها في الكتابة الوصفية وأحرزت كتاباتهم نتائج إيجابية في هذا المجال.

ولشعورهم الإيجابي تجاه ما حققته جهودهم فقد دفعهم حماسهم إلى ((تسمية هذا القرن بعصر الوصفية لأن عملهم يقوم على وصف اللغة وصفًا علميًا دقيقا من ناحية الصوت أو الشكل أو التركيب)) (فريحة،٢٠٠٥ :٣٧)، ولكن في جانب آخر قد نجد بعضاً من الدراسات الانفعالية التي وإن قامت على أسس علمية دقيقة واحتوت على تحليل نقدي وملموس إلا أنها حينما سلكت طريق المبالغة وانتهجت آلية الاستفزاز أضعفت قيمتها العلمية وأهدافها المعرفية، وهذا الوعي وما تمخض عنه من دراسات نقدية وإجراءات عملية بديلة يدل على يقظة معرفية بواقعنا اللغوي، ومجيء هذه اليقظة وإن كانت متأخرة خير من عدم مجيئها، كما أن هذه اليقظة لم تصل إلى مستوى خطاب الرأي العام والأفكار السائدة في ذلك الخطاب بل إنها تجد مواجهة وحرباً شرسة لن يحسمها الزمن بين عشية وضحاها .

ومع أن هذه الورقة ليست معنية بخطاب الآخر (غير العربي) عن العربية وقضاياها التراثية والمعاصرة؛ ليس تقليلاً من أهمية ذلك وقيمته ولكن التزاماً بموضوعها والعقد المبرم بين محتوى الدراسة وعنوانها ... مع ذلك كله ونحن نقف على إجابة التساؤلات السابق ذكرها بشأن مزاعم حفظ القرآن للغة العربية فإننا نجد باحثاً عربياً يورد بعض الحقائق الصادمة في هذا المجال، حين يذكر أن إحدى الهيئات التابعة للحكومة الأمريكية ((أعدت تصنيفاً للغات المتحدث بها في العالم ولم تكن اللغة العربية داخلة في ذلك التصنيف لأنها ليست في تعداد اللغات الحية)) (الأخناوي،٢٠١٦ :٢٨)، ومعيار اللغات الحية في التصنيف هو استخدامها في التواصل بالسليقة اللغوية، والعربية لم تعد أداة للتفاهم اليومي بين الناس، ولكن الناس يتواصلون في العاميات أولهجات تختلف في نظامها اللغوي عن الفصحى التراثية، وفي مقام آخر بذكر باحث آخر دراسة أخرى فيقول ((عندما فتشت في الجدول الموسع للغات المنتشرة في العالم والذي يضم نحو ٢٣٠ لغة، أدركت الحقيقة التي أثارتني بقدر ما أزعجتني فمطبوعة (الألمناك) لم تعد تعتبر العربية لغة قائمة بذاتها، على أساس أن اللغة هي أداة التفاهم اليومي بين الناس وليست أداة الدرس والعلم. وهم يعتبرون أن العربية صارت لغة لقراءة الكتب

والمراجع، أما لغة التفاهم اليومي فهي اللهجات، مثل: المصرية والسورية والمغربية، وباختصار فهم قرروا أن يعتبروا العربية من اللغات الميتة))(الشوباشي،٢٠٠٤ :٨)، ونحن لا نسوق –كما سبق– هذه الإحصائيات والدراسات للوقوف على خطاب الآخر عن لغتنا العربية؛ ولكننا نذكره لكشف الهفوة في الخطاب العربي حينما يتأسس على مزاعم حفظ القرآن للغة العربية وخلودها وقدسيتها على حين أن الواقع اللغوي يكشف زيف تلك المزاعم ..إلخ، أما معايير تلك الدراسات والإحصائيات – وتحديداً حيال اللغة العربية– فقد حملت شيئًا من المبالغة وعدم الوعي الدقيق بتطور نظام اللغة العربية، فالعاميات أو اللهجات التي تذكرها تلك الدراسات ليست إلا من تطورات وتحولات الفصحى القديمة، وحينما تكون تلك التطورات والتحولات كبيرة جدًا فذلك طبيعي جداً نظراً لفاعلية الزمن الممتد امتداداً طويلًا ربما لا يماثله امتداد زمني في لغة أخرى، ولكن الإشكالية ليست في محتوى تلك الإحصائيات والدراسات، ولكنها في مستوى فهم الخطاب العربي لظاهرة التطور اللغوي ووضعها في سياقها الإجرائي الصحيح، فلا يزال هذا الخطاب قابعًا تحت سلطة النحو التقليدي وهيمنته الثقافية وغير قادر على تفكيك تلك السلطة وانتشالها من جمودها باستخدام أدوات وآليات النقد الحضاري الماثلة في حس نهوضي وتوق إنساني نحو التطوير والازدهار .

المحور الثاني: السياق التاريخي والجذور التراثية.

لابد من وضع هذا الخطاب في سياقه التاريخي، حيث نجد الجذور التي أصلت ورسخت تصوراته على نحو معين، ومن ذلك ما أكّده الثعالبي في مقدمة كتابه فقه اللغة وسر العربية من وجوب دراسة العربية، حيث يقول:((من أحب الله أحب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها وصرف همته إليها)) (الثعالبي،د.ت:٦)، ثم يمضي قائلاً ((والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمّها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد...)) (الثعالبي،د.ت:٧)، وقد بسط البحث في هذه المسألة الدكتور حمزة المزيني في كتابه (التحيز اللغوي)، وجمع الكثير من تلك الإشارات التاريخية عند أساطين علماء اللغة العربية في المدونة التراثية، ووجد أن ((هذه الآراء والأقوال مشابهة لما عند الأمم الأخرى من حيث النظر إلى اللغة المعيّنة أنها أقدم اللغات وأولها، ويعني هذا إضفاء التقديس عليها. وعلى الرغم من عدم صحة هذه الآراء والأقوال نجدها شائعة في كتب اللغة والأدب والمعاجم والتاريخ))(المزيني،٢٠٠٤م:٣١)، وقام بدراسة التحيز اللغوي في جميع اللغات مبتدئا بدراسة اللغات الأخرى ثم انتقل إلى العربية، ولكن هذه المقارنة قد تكون معبرا لأصحاب الموقف الثقافي والمنظور التراثي المتشدد ليقولون إذا كان ادعاء خصوصية اللغة وقداستها موجودا في الأمم الأخرى فنحن أولى به لأننا أصحاب الكتاب المقدس وأهل الدين الصحيح، فهذا الخطاب قد تحوّل إلى مكوّن هوياتي ثقافي، ومناقشته تحتاج إلى جرأة واثقة، وموقف ثابت، وآليات متكاملة في الممارسة والتطبيق.

ولكن المفارقة الغريبة أن هناك اختلافاً بين أقوال اللغويين من جهة وأقوال المفسرين من جهة أخرى في تراثنا اللغوي، ومركزية تلك المفارقة في تأويل النص الديني.. وتحديداً قوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أو الآية الأخرى (بلسان عربي مبين)، فاللغويون المتقدمون يعلو هتافهم بتفضيل العربية وتمييزها اتكاء على تكفل الله بحفظ العربية منطلقين من تأويلهم لتلك النصوص الدينية وتوجيه مقاصدها نحو هذا المفهوم، أما مدونة المفسرين التراثية فلا نجد فيها ذلك الهتاف

والتصور المفاهيمي؛ بل يتواتر فيها أن الحفظ بمعنى عدم الزيادة في القران والنقص منه وما يحيط بهذا المعنى بصورة أو بأخرى ...إلخ ، وهذه المفارقة ينبغي الوقوف عليها ووضعها تحت فحص تحليلي عميق لأنها تكشف عن مغالطات مؤثرة وتجاوزات غير مقبولة لاسيّما وهي متعلقة بالنص الديني المقدّس، والتساؤل المطروح فيها لماذا كان تأطير الخطاب اللغوي التراثي متضمناً تلك المغالطات والتجاوزات؟ وقد يمتد هذا التساؤل إلى أين دور علماء الشريعة المعنيين بتصحيح المفاهيم الخاطئة في تماسّها مع النصوص الدينية وخروجها على أحكامهم وتفسيراتهم بشأن تلك النصوص؟

والإجابة عن هذه التساؤلات لن تكون فاعلة ومثمرة في حال اقتضابها ولكنها تحتاج إلى التعمق في تحليل علمي يبسط القول في استقراء واقع التدوين والظروف الثقافية لتلك المرحلة، وقبل المضي في ذلك يجب مراعاة النقاط الآتية:

١- ظهور الشعوبية والتحدي الحضاري الذي واجهته الثقافة العربية.

٢- غياب التجارب السابقة وافتقاد الخبرة في تدوين المعارف والعلوم العربية.

٣- المنافسة بين العلوم الإنسانية في قضية الشرف ونبل الاختصاص ومواطن الاشتغال.

فتدوين اللغة ووضع قواعدها كان استجابة لظروف سياسية واجتماعية وثقافية محددة، يأتي على رأسها دخول الأمم غير العربية في الإسلام وتبلور النسيج الاجتماعي للدولة الإسلامية العربية من تلك الشعوب، حيث أصبح العرب في الدولة الجديدة الواسعة قلة وأمة محدودة في عددها وتكوينها الثقافي، كما أنه في مرحلة التدوين كانت الشعوبية في أوج احتدامها، والإنسان العربي في هذه المرحلة حتى وإن كان يمتلك سلطة سياسية ودينية – إلى حد ما- لكنه أمام زخم الشعوبية يفتقد سلطة التراث اللغوي والفكري قياساً بما تمتلكه الحضارات الأخرى التي دخلت في الإسلام، وأمام هذا التحدي الحضاري الكبير كان لابد من تدوين اللغة ووضع قواعدها على أن يكون في هذا التدوين مراعاة لجوانب الخصوصية والامتياز كردة فعل على المثير الرئيس في هذه القضية، كل هذا علاوة على أن يكون لهذا العمل مكانة وأهمية ويحظى بالتقدير وينظر إليه باحتفاء، إضافة إلى الحاجة الفعلية في تعلّم العربية ومعرفة قواعدها لدى المسلمين من غير العرب وهم غالبية ساحقة تحتاج إلى قراءة القران ومعرفة أحكام الدين، ولذلك ((أثار الهجوم على اللغة العربية الكثير من العلماء والكتاب وكان

العديد منهم من أصول غير عربية فقاموا بالدفاع عن العربية وتفنيد مزاعم الشعوبية، فأخذوا يؤكدون على روعتها وأنها أجمل اللغات وأنصعها وأغناها، وذهبوا إلى أن العناية الإلهية باركتها إذ اختارها الله للتنزيل وشرفها فاقترنت بالإسلام كما ارتبطت بالعرب. وكان من أبرز المدافعين عن اللغة العربية الجاحظ والتوحيدي والثعالبي والأنباري والزمخشري وغيرهم. وبذلك ساعدوا على تعزيز مكانة اللغة العربية وتوسيع العلوم والآداب المتصلة بها))(الملاح،٢٠٠٨م:١٨٧)، والملحوظة المهمة هنا أن هذه الأسماء هي التي خاضت المعارك مع الشعوبيين؛ وهي التي انتشر في مذكراتها تأسيس هذا الخطاب وتبني أفضلية العربية وقدسيتها، مما يدل بالتالي على فاعلية الظرف التاريخي والثقافي في وجود ذلك الخطاب.

وهنا نعود إلى تحليل المفارقة التي سبق ذكرها بين مدونتي اللغويين والمفسرين في تفضيل اللغة وتأكيد خصوصيتها، حيث نجد أن المفسرين والفقهاء والمحدثين...إلخ، في مرحلة التدوين كانوا يتمتعون بشرف العلم ونبل الاختصاص لأن عملهم وجهدهم يتموقع في مدونة مقدسة (القرآن والسنة النبوية)، وفضل علمهم يكمن في اشتغالهم بأحكام الدين والعقيدة ومقاصد التشريع، ولا يمكن للغويين أن يصلوا إلى شرف اختصاصهم وفضل علمهم، فهم وإن كان لهم من أفضلية العلم وشرف الاختصاص نصيب كبير إلا أنهم لا يصلون إلى مستوى المنشغلين في العلم الشرعي الخالص (فقهاً وحديثاً وعقيدة...إلخ) في الشرف والمكانة، وقد تداولت هذه القضية كتب التراجم والأخبار بصورة تعكس تنافس أهل العلوم والاختصاصات، ومن ذلك قصة يذكرها أبو البركات الأنباري عن ثعلب النحوي وأبي بكر بن مجاهد،((قال ابن مجاهد:كنت عند أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ،فقال: يا أبا بكر اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو، فليت شعري ماذا يكون حالي في الآخرة؟ فانصرفت من عنده تلك الليلة فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال : أقرئ أبا العباس مني السلام وقل له:إنك صاحب العلم المستطيل))(الأنباري،١٩٩٨: ٢٠٤)، فهذه القصة – وبغض النظر عن صحتها– وإن كان القصد منها تأطير خطاب أفضلية اللغة وقداستها إلا أنها تعكس الشعور المقلق لدى علماء اللغة حول أفضلية اختصاصهم وقيمته قياسا بالعلوم

والتخصصات الأخرى،والاعتماد على الأحلام والمنامات دليل على الافتقار إلى النصوص الصحيحة في هذا المجال .

ولعل إعادة النظر في القصة المشهورة – السابق ذكرها – حول سبب وضع أبي الأسود الدؤلي لقواعد النحو، ثم دراستها بمنهج تفكيكي– ليس غمزًا للتراث ولكن بحثًا عن الحقيقة – تكشف عن اضطراب في واقعية تلك القصة، وأول ملامح هذا الاضطراب وجود شخصية علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– في هذه القصة حيث وضع الجملة الرئيسة ثم طلب من أبي الأسود أن يكتب نحو تلك الجملة .. إلخ، وتقع هذه الشخصية الاعتبارية في جزء من القصة، وفي جزء آخر تحضر شخصية ابنة أبي الأسود الدؤلي حينما لحنت في كلامها؛ فأثار لحنها والدها ودفعه ذلك إلى وضع قواعد النحو ...، فهل ما دفع أبا الأسود الدؤلي توجيه علي بن أبي طالب أم لحن ابنته ؟ وهنا نجد عدم الانسجام بين أجزاء هذه القصة ودور شخصياتها، ولعل هذا ما دفع أحمد أمين إلى القول بأن نسبة وضع النحو إلى علي –رضي الله عنه– حديث خرافة(أمين،١٩٦٩: ٢٤٥/١)، ولا يناسب طبيعة الفكر في زمنه لأن تلك الطبيعة لا تقبل التقسيمات والتعريفات المنسوبة إلى رجال ذلك الزمن، إضافة إلى أن شخصية علي قد تتغير في بعض تلك الروايات ويحل بدلاً عنها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أو زياد بن أبيه..إلخ، والذي نستنتجه أن وجود شخصية اعتبارية لها قيمتها ومنزلتها في هذه القصة يؤدي إلى علو شرف ذلك العلم وارتفاع منزلته ، ولذلك نجد بن أبي حديد في إشارته إلى دور علي في تأسيس علم النحو يقول ((وفن العلوم : علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدعه وأنشأه ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله، من جملتها الكلام كله ثلاثة أشياء :اسم وفعل وحرف، ومن جملتها : تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم، وهذا يكاد يلحق بالمعجزات، لأن القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر، ولا تنهض بهذا الاستنباط))(ابن أبي حديد،٢٠٠٧: ٣٨/١)، ولعل في آخر قوله ووصف ذلك الأمر بالمعجزة وأنه فوق مستوى القوة البشرية ما يعضد بصورة أو بأخرى ما ذهب إليه أحمد أمين بهذا الخصوص.

بعد هذا الاستطراد التاريخي في المدونة التراثية و كيف تشكّل فيها الخطاب العربي بشأن اللغة يتبين لنا أنه قد تكونت سيرورته كموقف ثقافي صارم بصورة سلطوية

مهيمنة ومكونات إيديولوجية راسخة، وقد منحه التراكم الكبير والحجم المهول قوة مضاعفة ليكون مرجعية تراثية ذات نفاذ وهيمنة خاصة، وعند التعمق في هذا الاستنتاج واختبار مدى مصداقيته؛سنجد أن المرجعيات الثقافية العربية بجميع أصنافها قد داخلها الانزياح، وطالها التجديد،ومشى فيها التطور، استجابة لتطور الحياة ومتغيرات الحضارة، فالأدب العربي قد ركب موجة الحداثة، والنقد استجاب للمناهج النقدية الحديثة و آليات النظرية الجديدة، والبلاغة تطورت إلى ما يسمى البلاغة الجديدة ... إلخ، أما النظام اللغوي في العربية فهيمنة مرجعيته وسلطة نفاذه شيء مختلف عن جميع تلك المرجعيات، ولخصوصية هذه المرجعية وقوتها كان تأثيرها في المعاصرين بالغاً؛ فتعمقّت في نفوسهم واستولت على مداركهم، وعلى ضوء هذا التأطير فإن مقاربة هذا الخطاب بصورته التراثية والمعاصرة لن تكون ذات قيمة كبيرة ولن تثمر عن اختلافات مهمة، لأن الماضي قد أحكم هيمنته على الحاضر، ولأن الثقافة العربية بطبيعتها تنظر إلى التراث نظرة إجلال وإكبار، والنصوص المعاصرة التي وقفت عليها هذه الدراسة سابقًا تكشف عن مدى التقليدية المنحوتة والتكرار المنسوخ، ولذلك تبقى مهمة الخطاب المعاصر في تأصيل الماضي وترسيخ مفاهيمه،كقول الرافعي:((اللغة العربية تمتاز عن اللغات كافة بارتباطها بهذين الأصلين العظيمين الخالدين، وهما على وجه واحد أول الدهر وآخر الدهر وإليهما مناط العقائد في العالم الإسلامي كله ... وليس يخفى أن القرآن أصبح أصل اللغة . فمادام كل انقلاب اجتماعي فينا لا يأتي على هذا الأصل، فهو لن يأتي على تلك اللغة في سلطاتها الدهرية، وإذا كان الحي لا يبنى إلا من داخله فهو لا يهدم إلا من داخله))(الرافعي،١٩٢٠: ٤٠٠)، وفي هذه النمطية لن يجد الخطاب المعاصر إشكالية كبيرة لأنه يتكئ على مرجعية تراثية قوية؛ فتبقى مهمته في قولبة الأساليب وإعادة الإنتاج بأنماط جديدة وأساليب معاصرة، ولكن المأزق الذي يواجهه هذا الخطاب هو ما آلت إليه النظريات اللسانية وما أسفرت عنه الدراسات التطبيقية فيها حين جعلت اللغة العربية المعاصرة مادة لها، وهنا يلجأ هذا الخطاب إلى أسلوب التعالي على واقع الحضارة وتطور المعرفة، فيؤثر الانعزال الذاتي والاكتفاء بالماضي، ويحضر الآخر بصورته العدوانية المتربصة، ويصبح من رام الإفلات من حدود هذا الخطاب ومفاهيمه المؤصلة من المارقين أو المنخدعين بثقافة الأخر، بل قد تعلو لهجة هذا الخطاب فيتهم بالعمالة والعداء، وتلصق به صفات

الخيانة وعدم الغيرة، وهنا تظهر الآليات الجديدة في صياغة هذا الخطاب والعزف على خطر الآخر ووجود العدو المتربص والعميل المخادع، وبدلاً من البحث عن إمكانية خلق حوار تفاعلي بين التراث اللغوي واللسانيات يصبح ذلك من الانصراف عن الدراسة اللغوية العربية الأصيلة، وفي هذا أحد يقول الباحثين: ((إن ثمة غلواً محموماً ينهد به نفر من المغرمين بالبحث الألسني الأوروبي في هذا القرن، يهدف إلى الانصراف عن البحث العربي الأصيل إلى الألسنية الحديثة ولاسيما المعنيين بالعربية، ممن تعلموا شيئًا عند الغربيين، أو اطلعوا على ما جاءت به الترجمات من كتب البحث اللساني في فرنسا وغيرها من أقطار أوروبا بعد سوسير، وهو بحث مقحم على العربية، بعيد عن أنفاسها وخصائصها، وإدخال أهلها في ميدان غير مناسب لها، ولا متلائم مع طبيعتها، في الوقت الذي كانت الدراسات العربية الأصيلة قد آتت أكلها، وخدمت الحرف العربي خدمة لا مثيل لها، وأبرزت خصائص هذا اللغة إبرازًا كاملاً، لا يحتاج معه أبناؤها إلى مزيد من المداخلات والتعقيدات التي يتسم بها البحث الأوروبي الحديث))(العبيدي،٢٠٠٠: ٣١)، ويتضح في هذا النص كيف تسوده لغة التعالي وتحقير الآخر بأسلوب استخفافي، فالعمل غلو محموم، والذين يقومون به نفر من المغرمين بلسانيات أوروبا تعلموا شيئاً عند الغربيين، أما هدفهم فهو الانصراف عن البحث العربي الأصيل ... إلخ، وهذا الأسلوب في الطرح لا يصلح أن يكون مادة للبحوث النقدية الجادة التي تسعى إلى إصلاح الواقع و تقويم الأخطاء، ولا يمكن أن يكون فاعلا ومثمرا في معالجة الواقع اللغوي، ولكنه يؤثر الانسحاب على المواجهة فيتخلى عن مسؤوليته نحو قضاياه الاجتماعية والثقافية دون اكتراث .

ولذلك سعى اللغويون والنحاة إلى تبني خطاب أفضلية اللغة العربية، وتأطير قداستها الدينية، وإشاعة وقبول كل مايخدم هذا الخطاب ويدور في إطاره حتى وإن كان ليس متماشياً مع سياسة التدوين اللغوي لديهم، ومن ذلك تبني محتوى الأحاديث الموضوعة وتوظيفه في تمجيد اللغة وتأكيد أفضليتها وامتيازها كحديث (لغة أهل الجنة القرآن) مع أنهم لا يقبلون الاستشهاد بالحديث النبوي في شواهد اللغة والنحو، ومن هنا يتبين لنا مقصدية ذلك الخطاب وأهداف تأسيسه، ولتحقيق هذا الغرض تحديدًا والسعي في سبيله كان القرآن الكريم المدونة الرئيسة التي حظيت بالنصيب الأكبر من

اشتعال اللغويين، مع أنه لا يمثل إلا جزءاً يسيراً في حجم المادة اللغوية إذا قيس بالشعر والخطب وسائر ما سمع عن العرب في عصر الاحتجاج.

أما الجزء الآخر من التساؤل المطروح والمتعلق بموقف علماء الشريعة من المغالطات الدينية في هذا الخطاب؛ فالإجابة عنه متعلقة بظروف مرحلة التدوين ذاتها، إذ لم تكن العلوم الشرعية قد استقر شأنها واكتمل نضجها، إضافة إلى انصراف اهتمامات أصحابها إلى تصحيح العقيدة وتمحيص السنة النبوية والانشغال بالصراعات والجدل المذهبي في مرحلة التدوين، ولذلك ظهر هذا الموقف في المراحل التاريخية اللاحقة، ومن نماذجه ما ذكره الإمام بن حزم حين قال:((وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له لأن وجوه الفضل معروفة وإنما هي بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة وقد قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)، وقال تعالى: (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون). فأخبر تعالى إلى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك))(بن حزم،٢٠٠٨: ٣٣)، ثم يمضي قائلاً ((وقد قال قوم : العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى، قال علي: وهذا لا معنى له لأن الله عز وجل قد أخبرنا أنه لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه ...فبكل لغة قد نزل كلام الله ووحيه ... فتساوت اللغات في هذا تساوياً واحداً ... فبطلت هذه الدعاوي الزائفة الهجينة وبالله التوفيق))(بن حزم،٢٠٠٨: ٣٤)، وقد تضمن كلامه إشارة مهمة إلى أن تلك الأقوال كانت موجودة لدى الأمم السابقة، ومن المخجل أن يتكرر هذا الأنموذج في خطاب المسلمين، والوقوع في مثل هذا التقليد والتبعية لا يليق بمقاصد الدين الإسلامي الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه لتخليص الدين مما أضيق إليه من أكاذيب البشر وأساطير الأولين، وحينما يبسط هذه الرؤية إمام بحجم بن حزم فلاشك أن لذلك أهميته واعتباره القوي، ولكن الخطاب المنتقد قد توغل ثقافياً وتأصل تراثياً ورسخ في العقلية العربية ذيوعا وانتشارا، فأصبح كأحد المسلمات التي تعد مراجعتها ومساءلتها من فضول المعرفة وشوارد الأفكار.

الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات :

وقفت هذه الدراسة على صورة الخطاب العربي بشأن اللغة العربية، والتزمت التزاما شديداً بمحددات موضوعها المعنية بتحليله ومناقشته؛ دون الانحراف إلى قضايا وظواهر النظام اللغوي الأخرى أو التعدي إلى خطاب الآخر (المستشرقين وغير العرب) عن العربية إلا في حدود ما تقتضيه آلية التحليل والدراسة، فحددت ملامح هذا الخطاب والأفكار الرئيسة فيه، ووضعته في سياقه التاريخي مبينة تأصيل مرجعيته التراثية؛ وأثر هذا التأصيل في الأجيال اللاحقة، ثم انتهت إلى النتائج والتوصيات التالية:

١- هذا الخطاب يتأسس في بنية انفعالية عاطفية تقوم على المبالغة في تفضيل النظام اللغوي للغة العربية على سائر اللغات البشرية ، وادعاء قدسيتها وتكفل الله بحفظها؛ استناداً على التأويل الخاطئ للنصوص الدينية واختزال أحكامها بما يخدم إيديولوجيات هذا الخطاب .

٢- هذا الخطاب نشأ في ظروف تراثية ثقافية محددة، وقد أسهمت تلك الظروف في تأطيره على النحو السابق .

٣- المرجعية التراثية المتضخمة وظروف نشأة هذا الخطاب جعلت منه موقفًا ثقافيًا صارمًا يمارس هيمنته وسلطته على الأجيال المعاصرة بكل قوة واقتدار.

٤- يوجد في هذا الخطاب مغالطات دينية خطيرة لا تليق بمقاصد القرآن النبيلة وأحكام الدين الإنسانية، ومناقشة تلك المغالطات ومعالجتها تظل حاجة ملحّة في هذا الخطاب .

٥- يقوم هذا الخطاب على تناقضات ومفارقات مدهشة، فالواقع اللغوي لا يعكس مضامين هذا الخطاب والأفكار الرئيسة فيه القائمة على تفضيل اللغة وحفظها.

٦- ضرورة فتح المجال أمام النقد الحضاري، واستثمار معطيات الثورة اللسانية ، والإدراك المعرفي الكامل لظاهرة التطور اللغوي، وتدعيم النقد بالتحليل والتطبيق، وطرح فكرة الانعزال والاكتفاء الذاتي.

٧- العمل على مقاربة هذا الخطاب بصورة واقعية هدفها تصحيح المفاهيم الخاطئة فيه وتخليصه من الهفوات العلمية والمعرفية والارتقاء بإيجابياته الاجتماعية كالاعتداد بالهوية الثقافية والمرجعية التراثية بأسلوب إنساني حضاري ينبذ

المبالغات الممقوتة والذاتية المفرطة، أما محاولة النقض والتقويض الكامل فلن تكون إلا سبيلاً إلى الزج بالمجتمع في سجال سيطول أمده، دون الحصول على نتائج مثمرة تسهم في تطور المجتمع وبناء نهضته وتنميته المأمولة في وقت هو في أحوج ما يكون إلى الترميم والبناء وليس إلى الهدم والتدمير.

المراجع :

أبو صالح، عبدالقدوس،"*ازدواج اللغة في المدارس والجامعات*"، مجلة كليات المعلمين ، الرياض (العدد(١)، أبريل ٢٠٠١م).

أمين، أحمد، *فجر الإسلام*، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩م.

الإخناوي، كمال محمود، *ما موقع اللغة العربية من الإعراب*، الجيزة ، ٢٠١٦م.

الأنباري، أبو البركات، *نزهة الألباء في طبقات الأدباء*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي ، ١٩٩٨م.

ابن أبي الحديد، عبدالحميد، *شرح نهج البلاغة*، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٧م. ٣٨/١

ابن حزم، الإمام علي، *الإحكام في أصول الأحكام*، تحقيق أحمد شاكر، بيروت، دار الآفاق، ٢٠٠٨م.

الثعالبي، أبو منصور، *فقه اللغة وسر العربية*، بيروت، دار الكتب العلمية، ص٦ (د.ت) .

حسين، محمد محمد، *"فقه اللغة بين الأصالة والتعريب"*، مجلة كلية اللغة العربية، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (العدد (١١)) ، ١٩٨١م

الحمد، تركي، *الثقافة العربية في عصر العولمة*، ط٣، بيروت، دار الساقي، ٢٠٠٣م.

الرافعي، مصطفى، *"مستقبل اللغة العربية في العالم العربي"*، مجلة الهلال، السنة ٢٨، العدد ٥، ١٩٢٠م، ص٤٠٠.

رفيدة، إبراهيم، "**الفصحى لغة القرآن**"، *من قضايا اللغة العربية المعاصرة*، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٠م ، ص٩٣.

شاكر، محمود، *أباطيل وأسمار*، ط٣،القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ٢٠٠٥م.

الشوباشي، شريف، *لتحيا اللغة العربية يسقط سيبويه*، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤م.

العبيدي، رشيد،" *الألسنية المعاصرة والعربية*"، *مجلة الذخائر*، بيروت، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، العدد (١) ٢٠٠٠م.

عمر، عبالمجيد الطيب، *منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، ط٢*، مكة، الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي، ١٤٣٧ه.

فاضل، محمد، تحريم اللغة الأجنبية ، *صحيفة الوقت البحرينية* ، البحرين العدد (١٤٤١)، ٣١ يناير ٢٠١٠م.ص١١.

فريحة، أنيس، *نظريات في اللغة*، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٥م.

المزيني، حمزة بن قبلان، *التحيز اللغوي وقضايا أخرى*، الرياض ، مؤسسة اليمامة، كتاب الرياض، العدد(١٢٥) ٢٠٠٤م.

الملاح، هاشم، *الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل* ، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠م.